الهوية الأنثوية بين الجسد والذات

دراسة تحليلية لواقع المرأة بين نظرة الآخر إليها كجسد ونظرتها لنفسها كذات

أ/إسعد فايزة زرهوني

أستاذة باحثة بجامعة عبد الحميد بن باديس –مستغانم–

مقدمـــــــة:

إن الحديث عن المرأة حديث لا نهاية له ولا طالما دار حوله النقاش والجدال لما تمثله المرأة في الهرم الإجتماعي لأي مجتمع ،فهي الأخت والبنت والأم والزوجة التي لا يمكن الإستغناء عنها، وهي العمود الأساسي لقيام الأسرة لأنها تقوم بدور بارز وفعال في مختلف المجالات لأنها تشرف على تربية الأبناء ورعايتهم فهي الأولى التي تعني بعملية التنشئة الإجتماعية. ولكن على مر العصور ظلت هذه المرأة تعاني من نظرة الآخر إليها التي جعلتها مهمشة، محتقرة تعيش الذل والمهانة ، هذه النظرة التي إعتبرتها جسدا له دور في تلبية شهوات الرجل متعلق بالجنس وبين وجودها كذات إذ لا طالما ناضلت المرأة من أجل إثبات ذاتها ككائن له أهمية كبرى في المجتمع لا تقل أهميته عن أهمية الذكر ومن أجل تغيير تلك النظرة إليها التي كانت مليئة بعبارات الإحتقار لأنها إرتبطت بمفاهيم عديدة كالحرام والجنس والعار وغيرها إبتداء من العصور القديمة رغم أنها وعلى مر العصور كانت تقف ندا إلى جانب الرجل وتكافح معه من أجل تحقيق استمرارية الحياة الإجتماعية .فهل فعلا توصلت المرأة إلى إثبات ذاتها وتغيير النظرة السلبية التي كان ينظرها إليها الآخر ؟

تحديد المفاهيم :

الجسد : يعرف الجسد على أنه "نظام من العلاقات الدالة والمنتجة للمعاني وإعتبار حركاته إنتاجا ثقافيا إنما تخضع لطبيعة الحاضرة ونظام الثقافة.....فللجسد لغة وهي سابقة عن لغة اللفظ فكل إستعمال للجسد هو تعبير"[1]

فالجسد عموما يتكون من الحس والحركة اللتان تتحدان وتشكلان الحياة .

الذات :

إن التعريف الإجرائي للذات يجعلها تلك الذات الفاعلة أو سوسيلوجيا الفاعل الإجتماعي وفي علم النفس

النفس البشرية التي تنشأ من خلال عمليات التفاعل، فالذات عموما مركبة من الإحساس والتصور والشعور والتفكير أي تحمل الجانب المادي والمعنوي الواقعي والمثالي وبالتالي هي أساس بناء الشخصية .

الجسد الأنثوي في الفكر الإجتماعي :

إن مجمل الكتابات وحتى الروايات جعلت من المرأة كائنا ضعيفا دائم الحاجة إلى الحماية، وكان الحديث عن المرأة حتى في الشعر ومنذ القدم حديث عن مفاتنها وجمالها وجسدها مما جعلها عنصرا للإغراء والإغواء فكان يتغزل بها الشعراء، كما أن الواقع لم ينفي ذلك بل أكده إذ وعلى مر العصور كانت المرأة ذلك الكائن المتجاهل ذاته والمتبث جسده، فلطالما تعرضت للذل والمهانة، وسلبت حقوقها وإرادتها وحتى حريتها . فعند النظر إلى صورة المرأة قديما نلاحظ أنها لم تكن لها مكانة ولم تتمكن من إثبات ذاتها ووجودها. ففي الحضارة الهندية لم تكن تحظى المرأة بأي قدر من الإحترام بل كانت محتقرة لأن طالما إعتبروها نذير شئم ومرادفا "للوباء و الموت و الجحيم والسم والأفاعي والنار"[2] لذلك المرأة كانت دائما مرتبطة عندهم على أساس ذلك بالعار والحرام، مما جعلهم يفرضون عليها أن ترمي بنفسها في النار بعد وفاة زوجها مهما كان سنها، أما المرأة العاقم الميؤوس منها والتي ليس بإمكانها الإنجاب فإنها تعاشر الرجال حتى ولو كانت متزوجة مما يظهر أنها كانت وسيلة للمتعة وتلبية شهوات الرجل، كما كانت النساء تعتبر جزءا من الغنائم في الحروب حيث بعد النصر كن يوزعن على القادة العسكريين حتى تمنح لهم جسدها وتكون متاعا لهم، وكانت أيضا تباع كما تباع الأدوات وذلك بعد موت زوجها إذا أسعفت من النار لأنه في نظرهم إذا بقيت بعد زوجها تصبح وصمة عار ماداموا كانوا يعتبرونها زانية إذا خلت برجل ولو لبرهة قصيرة "المرأة تعد زانية إذا خلت بالرجل مدة تكفي لإنضاج بيضة"[3] وعند تحليل هذه النظرة للمرأة نجدها في الحضارة الهندية لم تعبر عن شيئ إلا عن جسدها الذي كان

يشكل محورا أساسيا لإنتاج المتعة في جميع الحالات لأنها مصدر الفتنة ومقر الإغواء بمجرد لقائها بالرجل لدرجة إعتبارها زانية مهما كانت وبمجرد خلوها بالرجل وتجاهل ذاتها وشخصيتها .وعند الإنتقال إلى الحضارة الفارسية ما يمكن أن نسجله هو أن المرأة قد تحصلت على قدر من الحرية ولكن بقيت حريتها هذه متعلقة ومرتبطة بجسدها، إذ كان لها حق المبادرة بخطبة الرجال وإغوائهم، وكان للفارسي الحق في إتخاد الخليلات إضافة لزوجته يتمتعن بقدر من الإحترام و يعاملن معاملة حسنة لأنهن يقدمن له أجسادهن للمتعة وهنا أيضا تظهر أنه رغم حصول المرأة على حرية فإنها دائما تتجسد في جسدها الذي هو رمزا للمتعة عند الرجل وما ذلك الإحترام الذي كانت تحظى به الخليلات إلا جزاء ما يقدمنه من أجسادهن للمتعة ، فجسد المرأة عند الفرس كان وسيلة لحصولها على الإحترام الذكوري .

وعند الآشوريين والبابليين فقد أعتبرت المرأة مخبرا للتجارب الجنسية لدرجة أن البابليين كانوا يزعمون أن المرأة "لم تخلق إلا لإسعادهم و إشباع رغباتهم الجسدية "[4] وكانت تمر بزيجات تجريبية قبل الزواج حيث كانت المرأة أنذاك مطالبة بزيارة المعبد مرة واحدة في حياتها لمضاجعة الرجال الغرباء و تمكث هناك تنتظر ولو لمدة طويلة دون مغادرة المعبد حتى يتم إختيارها من طرف الرجال ومضاجعتها ، أي لايمكنها أن تخرج من المعبد قبل مضاجعتها وهنا كذلك يظهر دور جسد المرأة الذي يؤكد أن الآخر كان يولي أهمية لجسدها دون ذاتها ، فهي مرغمة على عرض هذا الجسد حتى ولو كانت ترفض ذلك فدون الأخد برأيها كان يسلب جسدها منها ودون رغبتها كانت تعطي المتعة والشهوة .

وهذا يذكرنا ببعض القبائل في المجتمعات البدائية التي كانت تعرض المرأة قبل دخول زوجها بها على الكاهن الأكبر أو رئيس القبيلة من أجل التمتع بجسدها وعندما كانت المرأة في بعض القبائل تتزوج من رجل وتعاشر جميع إخوته وبذلك تصبح متزوجة من جميع رجال القبيلة أو ننظر لما عبر عنه مورغان بالجنسية المشاعة التي أوجبت العلاقات الجنسية بحرية وبذلك فإن هذا كله يقر بنظرة الآخر للمرأة على أساس جسدها .

وفي الحضارة الفرعونية كانت المرأة الفرعونية جذابة وفاتنة وكانت تحاول دائما إثارة مشاعر الرجال وإغوائهم وكانت في حد ذاتها تحاول أن تلبي رغبات جسدها ونزواته في الوقت ذاته مثلما فعلت السيدة زوليخة مع سيدنا يوسف عندما حاولت إغراءه من أجل تلبية نزواتها الجسدية دون أن تجد في ذلك حرجا، كما كانت السيدة الفرعونية تدخل في علاقات غرامية متباهية بجسدها كما فعلت كيليوباترا مع قيصر روما ، ورغم أن المرأة الفرعونية بلغت مكانة مرموقة لدرجة أنها كانت زوجات للآلهة إلا أنها كان جسدها من يحقق لها مكانتها تلك إذ كانت سيدات مصر القديمة تترددن على الكهنة ليتمتعن بأجسادهن. ولم يتغير الوضع عند اليونانيين إذ"كان يسمح للزوجة عند (الدوريين) أن تستبيع نفسها من صاحبها بإذن زوجها كما أنها تخول للزوج نفسه أن يدفع زوجته للإستبضاع مع آخر"[5] ومن ذلك يظهر أن المرأة اليونانية حتى وإن كانت متزوجة لم تكن إلا بضاعة يتاجر بجسدها حتى أن القانون اليوناني إعتبرها ملكا لزوجها " القانون اليوناني جرد المرأة من حقوقها المدنية ووضعها تحت السيطرة المطلقة للرجل في مختلف مراحل حياتها، بل يعتبرها من ممتلكاته فكانت كقسط المتاع تباع وتشترى"[6] حيث كانت المرأة في نظر الرجل مجرد كائن مجبر على طاعته وتحقيق متعته لدرجة أنها أصبحت تمنح كهدية يوصى بها اليوناني إلى أي صديق يختاره ، ورغم أن أرسطو جعل لها مكانة إلا أنه كان ينظر إلى جسد المرأة أنه تحت سلطة الرجل وأنه بمثابة جسد العبد ، إذ ينبغي عليها أن تمتثل لزوجها متى أراد و كيفما أراد وقال عنها ديموسطين اليوناني "نتخد العاهرات لإشباع لذاتنا والخليلات لصحة أجسامنا و الزوجات ليلدن لنا الأبناء "[7] وفي كل الحالات التي قدمها ديموسطين فإن المرأة تقدم جسدها للرجل سواء كعاهرة أو خليلة أو زوجة للتمتع بها ففي كل الحالات لها نفس الدور هو جلب المتعة .

وفي المجتمع الروماني كانت المرأة تابعة للرجل لأنها كانت لا تعني شيئا غير كونها أداة لايلجأ إليها إلا عند الشهوات مما جعل الفواحش تكثر في المجتمع الروماني لأن أصبحت النساء تمتعن بأجسادهن الرجال و تحولت البيوت إلى أوكار لممارسة الرذيلة .

وعندما نعرج على المجتمع الجاهلي نجد أن المرأة لم تتمتع بأي حقوق لدرجة أنها كانت وصمة عار ، فكانت توأد وهي حية ،وكانت كقريناتها في العصور الأخرى ينظر إليها كجسد ينجب الأولاد ويحقق المتعة لذلك كان الزنى منتشرا بكثرة في تلك الفترة إضافة إلى أنه إنتشرت أنواع من الزيجات المحرمة كزواج المتعة من أجل تبرير التمتع بالنساء وتحليله، وعند التطلع على الشعر في هذا العصر نلاحظ أنه كان يغلب عليه طابع الغزل بمفاتن المرأة وجسدها الجميل .فمثلا إمرؤ القيس وصف محبوبته فاطمة في معلقته تغنى بمفاتن المرأة وجمالها .

وعند النظر إلى مكانة المرأة في الديانات نجد أن الإسلام هو الوحيد الذي أعطاها الإحترام والتقديس، فاليهودية إعتبرت المرأة لعنة ، كما جعلتها مسؤولة عما يفعل الرجل من أفعال شريرة ويعود منطق هذا الفكر عند اليهود بالنسبة للمرأة إلى كونها سبب الخطيئة الأولى و

التي جلبت المتاعب للجنس البشري وكتب اليهود المقدسة تعتبر المرأة مجرد متعة جسدية .أما المسيحية نظرت إلى المرأة أنها السبب في إغواء سيدنا آدم وخروجه من الجنة إذ إعتبروها شرا لابد التخلص منه وآفة مرغوب فيها وهي المسؤولة عن إنتشار الفواحش والمنكرات في المجتمع.

فالدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي غير من نظرة الآخر للمرأة ولم تعد ذلك الجسد المحروم من الحقوق الذي لا يحق له في الحياة إلا تقديم المتعة للرجل بل جعل لها مكانة وقدسها وصانها وجعلها عماد الأسرة وأساسها وبذلك جعل الآخر ينظر إليها ككائن محترم يقدره ويجله بل يشاركه حياته ويقف له سندا فيها .

إن تقديمنا لهذا العرض عن مكانة المرأة في الماضي ماهو إلا تذكير بصورتها ورمزيتها في المجتمعات وفي مخيلة ذكورية بالأخص والتي جعلت منها جسدا بلا ذات بإعتبارها وصمة عار و أساس الخطيئة مع تجاهل الجانب الأنثوي منها والذي يوحي بأنوثتها وبجمال يشع منه مختلف المشاعر الجياشة و المعبرة عن الصفاء و الإخلاص و الصدق و الحب رغم أنها كانت تقر بضرورة وجود هذا الكائن الذي يشبع جسده ويحقق لذته

المرأة بين الجسد و الذات :.

ومع التغيرات و التحولات الإجتماعية تغيرت كذلك هذه النظرة و إكتسبت طابعا جديدا ، لأن المرأة حاولت إثبات ذاتها وفرض وجودها ككائن ليس فقط دوره تحقيق المتعة وإنما ذات لها دورها في المجتمع كدور الرجل فيه فهي فاعل إجتماعي أساسي تساهم في تطويره، لأنها أصبحت متعلمة وتحرص على إتمام دراستها وأصبحت تتقلد مناصبا عليا مساهمة بذلك في بناء صرح المجتمع ورافعة بذلك التحدي، كما تمكنت ومن خلال المنظمات الحقوقية والحركات النسوية المنادية بحقوق المرأة ومساواتها مع الرجل فتمكنت من تعديل النظرة المجحفة في غيرها وتعديل السلطة الذكورية الغالبة عليها و التي كانت تفرض عليها الطاعة والإمتثال وأصبحت بذلك تشارك الرجل في أفكاره وحتى تقترح عليه وتبدي أفكارها ، فقضت بذلك على النظرة التي جعلت منها جسدا بلا ذات ، فلا طالما نظر الآخر إلى جسدها وذلك راجع كما ذكرت نوال السعداوي إلى طبيعة المرأة وطبيعة الرجل الذي يعتبر روحا في حين المرأة جسدا لأنها ناقصة دينا وعقلا في حين الرجل يملك العقل والفكر "الرجل الإله روحا و المرأة الشيطان جسدا".[8]

فالنظرة التي تمتعت بها المرأة في الماضي نابعة من الفكرة المتكونة عنها بإعتبارها ناقصة فحواء خلقت من ضلع رجل سيدنا آدم ،ولطالما كانت نذر شؤم وشيطان والسبيل إلى جهنم لأنها سبب الفواحش، وهي التي تؤدي بالرجل إلى الزنا في الثقافة العامة فهي مصدر الغواية والفتنة ،وهي التي كانت سببا في خروج آدم من الجنة والهبوط إلى الأرض ،وهي التي كانت سببا في حادثة قبيل وهبيل أبناء سيدنا آدم. كل هذه الأسباب جعلت المخيلة الذكورية تنظر فقط إلى جسد المرأة كموقع الرذيلة، وتجاهل ذاتها التي تعتبر أساس وجود المجتمع وأساس وجود الرجل في حد ذاته لأن كل رجل أنجبته إمرأة .

فهيمنة الجسد على المرأة وذاتها هو وليد الماضي الذي قلل من شأنها وجعل الجسد يطغى على الروح و الذات هذه الذات التي ناضلت حتى تحصل على حقوقها وتفرض نفسها، فخروج المرأة للعمل جعلها تبلغ مراتبا عليا وتحقق ما كانت تصبو إليه، كما أنها حققت حريتها في مواصلة دراستها من أجل إثبات ذاتها وكيانها فتمكنت من إختيار شريك حياتها والذي تمنحه جسدها برغبتها وبمقرر علاقة شرعية تضمن لها حقوقها وتحفظ لها كرامتها وتصونها، كما تمكنت من أن تسمع صوتها في المنتديات العالمية كرئيسة وعالمة وباحثة وطبيبة وأستاذة وحتى مشاركة في الجيش ومدافعة عن الوطن، وبالتالي تمكنت من تغيير أوضاعها وإستطاعت أن تقضي على تلك النظرة السلبية التي طالما طاردتها وكونت لنفسها هوية كانت مفقودة على مر العصور بين أفكار ومخيلة قديمة فرضتها الظروف الإجتماعية، وأصبحت تقتسم مع الرجل أعباء الحياة، فنشأ ما يطلق عليه بتقسيم العمل الذي جعلها تساعد الرجل بل تكون له عونا في الحياة " وبهذا النمط من تقسيم العمل نشأ إعتماد متبادل بين الجنسين ذلك التقسيم جعل الرجال معتمدين على النساء والنساء معتمدات على الرجال"[9] وبذلك إستطاعت المرأة أن تمحي تلك الفكرة عنها في التقاليد الإجتماعية والتي تؤكد على تفوق الذكر وتبعية الأنثى في المجتمع خصوصا العربي منه" إن التقاليد العربية تؤكد على تفوق الذكر و تبعية الأنثى في المجتمع ، المنبثق أساسا من القيم الإجتماعية التي تؤكد أن مكان المرأة في البيت حيث يعولها الذكر وهي كفتاة ليست مضطرة للذهاب إلى المدرسة وإذا ذهبت فليست مضطرة لمواصلة التعليم، لأن هذا الأخير ليس شرطا ضروريا للزواج أو الأمومة اللذين هما هدف الحياة"[10]

الخاتمة :

إن إستعراضنا لوضعية المرأة بين الجسد والذات جعلنا نقف على محطات في حياتها تجلت من خلالها نظرة الآخر إليها من خلال جسدها في مجتمع باتريكي تحكمه السلطة الذكورية، هذا الجسد الذي يقع بين تناقضات وثنائيات الحرام/الحلال، الحجب/الكشف، المقدس /المدنس بما أنه مرتبط بموضوع لازال في وقتنا الحالي يشكل طابو ا لايمكن التطرق إليه مباشرة، بين الجسد كهوية أنثوية وبين رمزيته كموقع للذة والرغبة والشهوة ومحاولتها إثبات ذاتها من خلال نضالها الطويل الذي تمكنت من خلاله أن تحقق الذات التي كانت غائبة عن الجسد وبذلك إرتبطت الذات بالجسد وشكلت روحا لا يمكن الإستغناء عنها أو التخلي عليها لأنها أساس قيام المجتمع والمنوط بالقيام بعملية التنشئة الإجتماعية، وهنا تظهر رمزية الجسد المرتبط بالعورة والحرام والدنس ولكن في الوقت ذاته مرتبط بالجمال والكينونة التي تجعل منه ضرورة لا يمكن تجاهلها أو الإستغناء عنها ، إذ في الواقع جسد المرأة كان يعبر عن وجودها كذات لأن هذا الجسد كان يجعل المرأة دائمة الحضور في الفكر الذكوري خاصة وفي الميراث الثقافي والإجتماعي للمجتمع وحتى في المخيال العام والذي من دونه لا يمكن للذكر أن يبرز قوته وقدرته وحتى سلطته وبالتالي لايمكنه أن يبرز حتى مشاعره أو شهواته، فلا وجود لذات دون جسد ولاوجود لجسد دون ذات فكلاهما يكمل الآخر، ويمكن أن نعتبر أن جسد المرأة هو الذي حقق ذاتها، لأن هذا الجسد هو الذي أتبث وجودها وحقق هويتها حتى وإن كان مجرد محقق للشهوة والمتعة والإغواء فإنه محل جمال ومخبأ المشاعر الفياضة ومنبع الحب الجياش الذي يحتاج إليه الرجل دائما وبإستمرار لتحقيق النزوة الحياتية .

الهوامش

1- رحاب مختار ، الجسد الأنثوي في المخيال الذكوري من خلال الثقافة الشعبية الجزائرية ، أعمال المؤتمر الدولي المنعقد بتاريخ 15و16 أفريل 2012 حول إشكالية الجسد في الخطاب العربي الإسلامي ، جامعة مستغانم ،ص158

2- عفيف عبد الفتاح طبارة ، روح الدين الإسلامي ، مطبعة الجهاد ط1، بيروت ، 1960 ، ص330

3- خديجة صبار ، الإسلام و المرأة ، واقع و أفاق ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 1992 ، ص16

4- فاطمة نصيف ، محاضرة حول حقوق المرأة في الإسلام ، منشور في موقع www.arabiyad.com2004/04 بتاريخ

5- عبد الحميد الشواربي ، الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1983 ، ص29

6- علي عكاشة و آخرون ، اليونان و الرومان ، دار الأمل للنشر و التوزيع أربد ، 1991 ، ص169

7- عبد الهادي بوطالب ، حقوق الأسرة و تحرير المرأة ، دار الثقافة ، 2005 ، ص44

8- مراد بن حرز الله ، الجسد الأنثوي في الفكر الإسلامي دراسة مقارنة تحليلية نقدية ، فعاليات الملتقى الدولي إشكالية الجسد في الخطاب العربي الإسلامي ، ص121 نقلا عن نوال السعداوي ، دراسات عن المرأة و الرجل ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ط2 ، بيروت ، 1990 ، ص341

9- تيسير الناشف ، السلطة و الفكر و التغير الإجتماعي ، أزمنة للنشر والتوزيع ، ط1 ، الأردن ، 2003 ، ص281

10- كريمة كريم ، المرأة العربية و النظام الإقتصادي الجديد ، مجلة المستقبل العربي ، لبنان ، العدد39 ، 1982 ،ص63